بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

مسطرة اللغوى

للدكتور إبراهيم أنيس

من المهندس وطالب الهندسة مسطرة حاسبة تيسّر العمليات الحسابية المعقدة فى دقة وأمنٍ من الزلل ، فتغنى عن الحساب بوساطة القلم والقرطاس ، وتوفر زمنا وجهدا ذهنياً ، وتحقق نتائج سريعة دقيقة فى البحوث الهندسية ، وهى تستخدم لدى المهندسين منذ عشرات من السنين .

ثم أصبحنا وإذا باللغوى الحديث وقد تهيأت له منذ شهور أداة تشبه مسطرة المهندس ، هى التى ندعوها هنا مسطرة اللغوى ، وتتمثل فى تلك الجداول الإحصائية التى نُشرت ووزعت على أعضاء المجامع اللغوية وأساتذة اللغات والرياضة فى العالم العربى ، وبها اكتملت مسطرة اللغوى التى ظلت زمنا طويلا حُلماً لنا نحن اللغويين وأملا نتطلع إليه ونتمنى لو ظفرنا به حتى تتحقق على يدى أستاذ الفيزياء الدكتور على حلمى موسى بعد أن استخدم ذلك الجهاز العجيب المسمى بالكومبيوتر أو العقل الإلكترونى ! !

والجداول الإحصائية التى بين أيدينا الآن مؤسسة على معجم من أشهر وأصحّ المعاجم العربية القديمة ، هو معجم صحاح اللغة للجوهرى المتوفى فى أواخر القرن الرابع الهجرى .

ويتساءل الدارسون منذ ظهرت تلك الإحصاءات كيف نستخدمها فى البحث اللغوى ، وهل تفسّر لنا بعض تلك الظواهر اللغوية التى كنا ندهش لها ، ونعجب من أمرها ، ثم لا نكاد نجد لها تفسيرا علميا معقولا مقبولا ؟ !

وقد أشرتُ من قبل إلى هذا التساؤل فى صدر هذه المجلة ، وتنبأتُ بأن ذلك التفسير العلمى المنشود سيتمّ بإذن الله ، ودعوتُ اللغويين المحدثين إلى أن يقولوا كلمتهم بعد أن قال أهل العلوم كلمتهم ! !

وهأنذا أفتتح هنا البحث اللغوى على أساس تلك الإحصاءات ، وقد كان لى حظ الاستشارة فيها والإشراف عليها ، فأصدّر هذا الجزء من مجلتنا ببحث قصير أحاول فيه على ضوء هذه الإحصاءات تفسير ظاهرة من ظواهر لغتنا العربية عرفها علماؤنا القدماء باسم « القلب المكانى » ! !

قنع اللغويون من العرب بالإشارة السريعة إلى هذه الظاهرة ودون محاولة لتعليلها أو تفسيرها مقررين أنها من سنن العرب ، ثم يسوقون لها مجموعة من الأمثلة لعل من أشهرها : جذب ، جبذ . يئس ، أيس ، لأك ، ألك . اضمحل ، امضحلّ . عجوز شهبرة ، شهربة . اكفهرّ ، اكرهفّ .

ولستُ أعرف منهم من عرض لها بشىء من التفصيل سوى ابن جنّى فى كتابه الخصائص ، فقد قسم أمثلتها قسمين : أحدهما يكون فيه كل من الصورتين أصلا مستقلا بذاته ، فليست إحدى الصورتين أصلا والأخرى فرعا لها . ومثّل لهذا القسم بالكلمة (جذب ، جبذ) . ومقياس الأصالة فى هاتين الصورتين ، فى رأيه ، كثرة التصرف مع كل منهما إذ يقال : جذب يجذب جذبا فهو جاذب . . . . . الخ . كما يقال جبذ يجبذ جبذا فهو جابذ ! !

أما القسم الآخر فيمثل له ابن جنى بكلمة (اضمحلّ ، امضحل) ويعدّ الصورة الأُولى أصلا ، وأن امضحلّ فرع لها . وذلك لأن اضمحلّ هى التى تتصرف فيكون منها المصدر اضمحلال ، فى حين أن امضحلّ لم يرد منها امضحلال ! !

ويرى اللغوى الحديث فى كل أمثلة القلب المكانى أن إحدى الصورتين أصل ، وأن الأُخرى فرع لها ، غير أنه قد تصادف أن بعض الفروع اشتهرت وشاع استعمالها فتصرفت أيضا كالأُصول وجاءت منها مشتقاتها ، فى حين أن البعض الآخر من الفروع لم تتح له تلك الشهرة أو الشيوع فلم تتصرف كأُصولها .

وظاهرة القلب المكانى ليست مقصورة على اللغة العربية ، فقد عرفت فى بعض اللغات الأجنبية ، وأشار إليها بعض اللغويين الأجانب ، وفسروها فى لغاتهم . فيسميها « جسبرسن » فى بعض ما كتب Transpositon أو Mnetathesis [1] ويعزوها إلى الجيل الناشىء وتعثره فى النطق بالصورة الأصلية ثم ذيوع الصورة الجديدة . ويرى أنه مع الكلمة الكبيرة البنية يشق عادةً على الطفل النطق بمجموع ما فيها من أصوات مرتبةً نفس الترتيب . ويعبر عن ذلك بقوله : « ليس الأمر مرجعه إلى طول الكلمة وحده ، أى صعوبة إصدار سلسلة كبيرة من الأصوات ، لأن الطفل فى مرحلة المناغاة يستطيع النطق بسلسلة أطول من الأصوات ، وذلك حين يكون نطقه غير متعمد أو مقصود . ولكن السرّ الحقيقى فى هذه الظاهرة هو أن الطفل يصعب على ذاكرته الضعيفة تذكُّر سلاسل الأصوات مرتبةً كما يسمعها من الكبار حوله ، فلا يقدر على تذكُّر ترتيبها ليتحقق له النطق الصحيح . وكذلك الشأن مع بعض الكبار فى بعض الأحيان ممن يكون نصيبهم من التعليم والثقافة ضئيلا . فحين يُطلب من أحدهم ترديد كلمة طويلة البنية من لغة أجنبية عنه كالسنسكريتية مثلا يشق عليه تذكر الترتيب الصحيح بين أصواتها ، فيحدث فى نطقه ما يسمى بالقلب المكانى » . ويسوق لنا جسبرسن أمثلة لاحظها مع بعض أطفال الإنجليز حين قالوا : Efelent بدلا من Elefent ، وقالوا : Serreval بدلا من Several ؛ وقالوا : Waps بدلا من Wasp ؛ وقالوا : Pillarcat بدلا من Caterpillar ! !

(١) Language its nature, development & origin. P. 108. & 281.

على أننا مع التسليم بفكرة ضعف الذاكرة لدى الأطفال وأشباههم ، نتساءل لماذا يقع القلب المكانى ، معذلك ، فى بعض الكلمات القصيرة البنية ، ثم فوق هذا ، لماذا يتخذ القلب المكانى صورة معينة فى تغيّر ترتيب الحروف ؟ ! ولذلك لا نتصور أن يكون لضعف الذاكرة دور حقيقى فى ظاهرة القلب المكانى إلا مع الألفاظ الأجنبية الطويلة البنية .

وقد تبيّن لنا فى دراسة حديثة أن السرّ الحقيقى فى معظم أمثلة القلب المكانى يرجع إلى اختلاف نسبة شيوع السلاسل الصوتية فى كلمات اللغات .

وربما يكون ذلك أوضح فى اللغات السامية ومنها اللغة العربية ، لأنها تعتمد فى كلماتها على الجذور الأصلية . وعليه فمعظم الصور المروية للقلب المكانى فى الكلمات العربية تعزى أولا وقبل كل شىء إلى اختلاف نسبة شيوع السلاسل الصوتية فى اللغة العربية .

وليس بين اللغويين العرب أو المستشرقين من فطن لذلك ، بل لم نفطن له نحن قبل ظهور الإحصاءات التى بين أيدينا .

وحديث ذلك ، دون الدخول فى متاهات علم النفس عن الذاكرة أو الحافظة ، أن نقول : إن المرء يكتسب فى سنى حياته محصولا لغويا ضخما يختزنه مرتبا فى مخّه ترتيبا خاصا يعين على تذكره وتداعى بعضه مع بعض ، فكأن الله سبحانه قد أمدّ المخّ فى كل منا بجهاز كومبيوترى عجيب لا يكاد العلم الحديث يعرف عنه شيئا . ويكفل لنا هذا الاستعداد الفطرى اختزان المحصول اللغوى مرتبا فى نظام صوتى خاص ييسّر علينا تذكر ما نحتاج منه فى كلامنا ، كما ترتبط عناصره بعضها ببعض ، وتتداعى بعضها مع بعض كلما خطرت فى الشعور أو جرت فى الاستعمال . ولا نشك فى أن ذلك المحصول اللغوى لدى كل منا يتألف من سلاسل صوتية أغلبها ثلاثى الأصول أو الجذور ، وأن هذه السلاسل الصوتية تختلف فى نسبة شيوعها

فى الكلام العربى ؛ فمنها الكثير الشيوع ، ومنها المتوسط الشيوع ، ومنها النادر الشيوع .

فإذا خطرت فى الذهن إحدى تلك السلاسل الصوتية القليلة الشيوع فقد تستدعى إلى الشعور سلسلة أخرى تشبهها فى معظم معالمها . ونلحظ أن السلاسل الصوتية الأكثر شيوعا من الناحية الإحصائية هى أكثر السلاسل خطورا فى الاذهان ، وأسرع فى الاستجابة حين الحاجة . فإذا سمع السامع أو نطق الناطق بسلسلة من تلك السلاسل الصوتية القليلة الشيوع تداعت لها مسرعةً سلسلة أخرى أشبه بها أو أقرب إليها ، وهى فى نفس الوقت أكثر منها شيوعا وترددا فى كلام الناس ، فكأنما كانت تطفو على سطح الشعور ، ولذلك تبادر قبل غيرها فى الاستجابة إلى المتكلم أو السامع .

فحلول سلسلة صوتية محل أخرى ، وهذا هو القلب المكانى ، سرّه الحقيقى أن السلسلة الجديدة الطارئة أكثر شيوعا ودورانا فى الكلام من الأخرى .

هذا هو الذى يفسر لنا ظاهرة القلب المكانى فى معظم أمثلة العربية بوجه عام . فما يسمى أحيانا بتعثر اللسان أو زلة اللسان ليس مرضا عضويا فى كثير من حالاته ؛ ولعلّ التعبير بقولنا : « سبق اللسان » يكون أقرب إلى ما نحاول هنا بيانه ؛ فسبق اللسان ليس إلا صدى لسبق التذكر الذى مرجعه أن بعض السلاسل الصوتية فى حافظتنا أسرع استجابة للخاطر من غيرها .

فإذا نظرنا فى ضوء ما تقدم ، لمجرد زيادة التوضيح ، إلى مثل من الأمثلة المروية فى كتب اللغة للقلب المكانى تجلت لنا هذه الحقيقة .

خذ مثلا الفعل « يئس » مع مقلوبه « أيس » نجد أن التفسير العلمى لهذا القلب هو أننا نجد فى الإحصاءات التى بين أيدينا ، والتى استخدم فى استخراجها جهاز الكومبيوتر ، وهى الإحصاءات التى ندعوها هنا مسطرة اللغوى ، نجد أن الجذر

الثلاثى الذى يبدأ بالياء وبعدها الهمزة أقل شيوعا من الذى يبدأ بالهمزة وبعد ها الياءُ ، فبينما يرد الأول فى إحصاءاتنا مرة واحدة فقط يرد الثانى عشر مرات .

وكذلك نجد أن الجذر الثلاثى الذى ينتهى بالهمزة وبعدها السين أقل شيوعا من الذى ينتهى بالياء وبعدها السين ، فبينما يرد الأول فى إحصاءاتنا مرتين فقط يرد الاخر ثمانى مرات . وأخيرا نجد أن المادة الثلاثية التى تبدأ بالياء وتنتهى بالسين أقل شيوعا من تلك التى تبدأ بالهمزة وتنتهى بالسين ، فبينما ترد الأولى فى إحصاءاتنا سبع مرات ترد الأخرى خمس عشرة مرة .

وهكذا نرى أن الذى سوغ القلب المكانى فى الفعل « يئس » ليصبح « أيس » هو أن نسبة شيوع السلسلة الصوتية « أيس » فى الكلام العربى أكثر كثيرا من نسبة شيوع السلسلة الأخرى .

وبالله التوفيق ،

مارس ١٩٧٢ م

ابراهيم انيس
المشرف على المجلة